ألون كونفينو

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، ١٩٤٨*

مُقدّمة

أُحتُلّتْ قرية الطنطورة الفلسطينيّة في ليلة السبت-الأحد، ٢٢-٢٣ أيّار ١٩٤٨، بعد معركة خاضها المدافعون عنها مع كتيبة ٣٣ التابعة لِلواء ألكسندروني. إلّا أنّ خراب القرية ومصير أهاليها من الطنطوريّين والطنطوريّات، لم يشغلا بال المجتمع اليهوديّ في إسرائيل طوال العقود التي تلت عام ١٩٤٨. بل على العكس؛ فقد تحوّل شاطئ الطنطورة إلى موقع سياحيّ مرغوب، برماله البيضاء الرخوة وجُزيراته الصّغيرة، وخطّ الشاطئ المُتعرّج المليء بالأصداف الورديّة-البُنيّة التي لا تُحصى، وفي الخلفيّة صوت الأمواج الخافت. عائلات من المتنزّهين تستلقي بمُتعة ولذّة تحت فيء المظلّات، فيما يركض الأطفال على الشاطئ تصحبهم صيحات المتعة وهم يبنون القصور الرمليّة. في المقابل، كانت بيوت القرية المهجورة تقف مكشوفة حتّى نهاية سنوات الخمسين، وفي سنوات الستّين، بعد هدمها، ظلّت ملامح القرية تدلّ على ما تبقّى منها.

في العام ٢٠٠٠ طرأ تغيير ما على هذه الصّورة بعد اندلاع «قضيّة الطنطورة»؛ وقد كتبتُ «تغيير ما» لأنّ هذه القضيّة تركّزت في السّؤال حول ما إذا وقعت مجزرة في الطنطورة أم لا، لا في الأبعاد الأخرى الخاصّة بتدمير القرية. في آذار ١٩٩٨ قدّم تيدي

* النص التالي هو ترجمة لبعض فصول كتاب شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، ١٩٤٨، الصادر في أيلول ٢٠٢٣. وقد اختار مركز «مدار» ترجمة الفصول التالية: المقدمة، الفصل الحادي عشر والفصل السادس عشر.

شاطئ الطنطورة هو كتاب تاريخ يروي ما حدث، ويروي كيف قُمت بفكّ ألغاز ما حصل في الطنطورة، وكيف عثرتُ على مصادري وكيف عثرتْ هي عليّ. ويدمج الكتاب مصادرَ تاريخيّة متنوّعة، مثل الوثائق والمستندات من السّلطات الحكوميّة ومن الأرشيفات، ومعها شهادات شفويّة ودفاتر يوميّات وصور جويّة وأفلام وثائقيّة وجداول أوقات القطارات ومنشورات واعترافات ولقاءات ومقابلات وجولات.

كاتس الكيبوتسيّ الودود من مچيل، وهو في منتصف سنوات الخمسين من عمره، رسالة الماجستير لقسم تاريخ الشّرق الأوسط في جامعة حيفا. كان موضوع الرسالة المُقدّمة: «خروج العرب من القرى الواقعة عند سفوح الكرمل الجنوبيّ عام ١٩٤٨»، وقد حصلت على علامة ٩٧ وتقرّر منحها جائزة. كان كاتس على غرار الكثيرين من سُكّان الكيبوتسات البالغين قدّ قرّر تحصيل الدراسة في الجامعة في سنّ متأخّرة، وهو رجل بشوش وضخم الجسد، وله شارب عظيم يُكسبه منظرَ بحّار قديم. كان كاتس ناشطًا يساريًّا صهيونيًّا يعي الحاجة لبحث تاريخ دولة إسرائيل بكلّ جوانبه، وكانت العلاقات العربيّة-اليهوديّة تثير اهتمامه بشكل خاصّ، فاختار أن يتركّز في العام ١٩٤٨. تطرّقت رسالة الماجستير إلى احتلال قريتيّ أم الزينات والطنطورة، واستندت إلى موادّ مكتوبة وأرشيفيّة، وإلى شهادات أدلى بها العشرات من الأشخاص اليهود، غالبيّتهم من مقاتلي لواء ألكسندروني، وإلى مقابلات مع فلسطينيّين، من بينهم سكّان سابقون من الطنطورة.

في العادة تنتهي رسائل الماجستير مُرتّبة فوق رفوف مكتبة الجامعة من دون أن تحظى باهتمام خاصّ. لكنّ أمير چيلات الذي كان زميل كاتس لمقاعد الدراسة نشر في كانون الثاني ٢٠٠٠ مقالة مُوسّعة في جريدة معاريف عن إحدى نتائج ومُخرجات رسالة كاتس. فقد ادّعى كاتس بما يخصّ الطنطورة أنّ الشهادات الشّفويّة تكشف عن وقوع مجزرة كبيرة ارتكبها مقاتلو لواء ألكسندروني، لم يرد ذكرها في وثائق أرشيف الدّولة وفي الأدبيّات المكتوبة. في أعقاب ذلك هبّت عاصفة مُدوّية ضدّ كاتس. وفي نيسان ٢٠٠٠ قدّم مُقاتلو لواء ألكسندروني دعوى قذف وتشهير ضدّه بادّعاء فبرَكة اللقاءات معهم، على الرغم من أنّهم تحدّثوا خلالها عن أفعال استثنائيّة لا يجدر الحديث عنها. وبدلًا من أن تُساند جامعة حيفا طالبها وتدافع عن حُريّة البحث الأكاديميّ، شكّكتْ في نزاهة كاتس الأكاديميّة وانبرتْ ضدّ المُشرف على كتابة الرسالة، المرحوم بروفسور قيس فرّو، وضدّ د. (اليوم بروفسور) إيلان پاپه الذي انبرى للدفاع عن كاتس ووقف إلى جانبه من دون هوادة.

في ضوء ذلك، ومن دون أن يقصد ذلك، واجه كاتس ضغوطات شخصيّة هائلة. وبعد أيّام على بدء المحاكمة في كانون الأوّل ٢٠٠٠، خضع للضغط العائليّ ووقّع في منتصف الليل على تسوية في القضيّة، اعترف فيها بأنّ ادّعاءاته بوقوع المجزرة كانت ادّعاءات واهية. بعد ذلك بساعاتٍ قليلة عاد إلى رُشده وأصرّ على صحّة هذه الادعاءات. وهكذا قدّم هو ومحاميه أڤيچدور فيلدمَن -الذي لم يكن حاضرًا أثناء اللقاء الليليّ الذي مورست الضغوطات فيه على مُوكّله- طلبًا إلى القاضية دڤوراه پليل لإلغاء التسوية ومواصلة مداولات المحكمة، إلّا أنّ طلبهما رُفض. في هذه الأثناء، وفي خطوة غير مسبوقة، أقامت جامعة حيفا لجنة جديدة لفحص رسالة الماجستير، ما أدّى إلى إلغاء الرّسالة وإخراجها من المكتبة، ومن ثمّ إلغاء اللقب الجامعيّ الممنوح لكاتس. في العام ٢٠٠٢ قدّم كاتس رسالة جديدة احتوتْ على مصادر جديدة، لكنّها أُلغيتْ هي الأخرى. لم تضع الجامعة نصب عينيْها السّعي الشجاع إلى البحث عن الحقيقة، بل الخنوع لضغوطات الرأي العامّ والتخوّف من الانتقادات المُوجّهة إليها بأنّها مؤسّسة غير وطنيّة.

لقد دفع كاتس ثمنًا شخصيًّا وصحيًّا ومهنيًّا باهظًا جراء الضغوطات التي خضع لها بسبب الأحداث. وعلى الرغم من ذلك، التزم بالحقيقة كما

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

رآهـا سـنواتٍ طويلـة. ثـمّ عـادت قضيـة الطنطـورة إلى العناويـن في كانـون الثانـي ٢٠٢٢ مـع صـدور الفيلـم المُزلـزِل الـذي أعـدّه ألـون شـقارتس، «طنطـورة»، وهـو فيلـم يشـكّل علامـة فارقـة في تاريـخ المجـزرة التـي وقعـت في الطنطـورة، وفي الذاكـرة ونسـيانها في إسرائيـل. لقـد قـام شـقارتس مـن خـلال الفيلـم بأمريْـن مهمّـيْن: الأوّل أنّـه حصـل مـن كاتـس عـلى تسـجيلات شـهادات الجنـود وحوّلهـا إلى ملفـات رقميّـة، والأهـمّ أنّـه اسـتمع لهـا؛ أمّـا الأمـر الثانـي أنّـه استشـار مُختصّـين بالصُّـور الجويّـة، ونجـح عـبر مسـاعدتهم بتشـخيص موقـع ونطـاق القـبر الجماعـيّ الـذي كانـت مسـألة وجـوده معروفـة. هكـذا نجـح شـقارتس بتطهـير اسـم كاتـس الـذي أنجـزر بنزاهـة رسـالته البحثيّـة التاريخيّـة. وقـد أثـار هـذا الشريـط نقاشًـا مُجـدّدًا حـول قضيـة الطنطـورة، وكان النقـاش هـذه المـرّة أوسـعَ قليـلًا: كان نقاشًـا حـول ذاكـرة النكبـة وتغييبهـا في المجتمـع اليهـوديّ في إسرائيـل. هـذا الكتـاب الـذي بـين أيديكـم، «شـاطئ الطنطـورة، دمـار قريـةٍ فلسـطينيّة، ١٩٤٨» ينضـمّ إلى هـذا النقـاش.

كمـا سـبق وأسـلفنا، شـعرتُ منـذ العـام ٢٠٠٠ بانجـذاب إلى قصّـة الطنطـورة؛ رويـدًا رويـدًا، وبشـكل متقطّـع، تحوّلـت الطنطـورة إلى جـزء متواصـل مـن عمـلي. كان اهتمامـي بالقصـص التـي نرويهـا عـن أنفسـنا هـو الـذي دفعنـي إلى تفحّـص الذاكـرة الجمعيّة؛ مـا أريـد قولـه كيـف أنّ مجموعـاتٍ مُعيّنـةً -مثـل العائـلات أو الشّـعوب- تـروي القصـص عـن المـاضي مـن أجـل منـح معنًـى ومدلـولاتٍ للحـاضر: قصـص طافحـة بالمبالغـات والإنـكارات والتنكّـرات وحتّـى الاختلاقـات، لا تهـدف لاسـتعراض المـاضي كمـا كان، بـل تهـدف لعرضـه كمـا لـم يكـن. قضيّـة الطنطـورة هـي حـدث اسـتثنائيّ تقاطعـتْ مـن خلالـه قصـصُ حـروب مختلفـة تخـصّ عـام ١٩٤٨: قصـص السّـكان وقصـص الجنـود وقصـص التغطيـة عـلى القتـل في المجتمـع اليهـوديّ ومُجمـل القصـص التـي كتبهـا المؤرّخـون. وهكـذا نشـأت هـذه القصّـة التـي أمامكـم بطبقاتهـا المتعـدّدة والمُركّبـة مـن الذاكـرة والنسـيان، ومـن التاريـخ والخيـال، ومـن الضحايـا ومُرتكبـي الظلـم.

شـاطئ الطنطـورة هـو كتـاب تاريـخ يـروي مـا حـدث، ويـروي كيـف قُمـت بفـكّ ألغـاز مـا حصـل في الطنطـورة، وكيـف عثـرتُ عـلى مصـادري وكيـف عثـرتْ هـي عـليّ. ويدمـج الكتـاب مصـادرَ تاريخيّـة متنوّعـة، مثـل الوثائـق والمسـتندات مـن السّـلطات الحكوميّـة ومـن أرشـيفات الهَجانـاه والجيـش الإسرائيليّ وكيبوتـس نحشـوليم، ومعهـا شـهادات شـفويّة ودفاتـر يوميّـات وصـور جويّـة وأفـلام وثائقيّـة وجـداول أوقـات القطـارات ومنشـورات سـياحيّة وكتـب تذكُّريّـة ومقاطـع ذاكـرة مـن الصحافـة واعترافـات ولقـاءات ومقابـلات وجـولات ومحادثـات هدفهـا الكشـوفات ومحادثـات أخـرى سـعت للتوريـة وتدويناتـي أنـا عـلى مـرّ عشريـن عامًـا مـن البحـث في هـذه المسـألة. وهكـذا يُـراوح الكتـاب عـبر فضـاءات الزمـان والمـكان في إسرائيـل وفلسـطين، وعـبر مـاضي سـنة ١٩٤٨ وحـاضر أيّامنـا الرّاهنـة.

لا تكمـن في لُـبّ الكتـاب أحـداث الطنطـورة يـوم ٢٣ أيـار ١٩٤٨ فحسـب، بـل في لُبّـه أيضًـا قصّـة الطنطـورة التـي حصلـت قبـل وخـلال وبعـد ١٩٤٨: الطنطـورة لا باعتبارهـا حـدثَ قتـل موضعيًّـا فقـط، بـل كنهـج علاقـات بـين التاريـخ والذاكـرة، وبـين الدمـار وتغييـب الذاكـرة. لا يكتفـي الكتـاب بسـرد قصّـة مـا حـدث هناك في الطنطـورة والحديـث عـن هُويّـة مُدمّـري القريـة، بـل يتطـرّق أيضًـا إلى العوامـل التـي مكّنـتْ مـن وقـوع هـذه الأحـداث.

وهذه قصّة ما حدث.

الفصل الحادي عشر: الاقتلاع

لـم تكـن مجـزرة الطنطـورة الحالـة الوحيـدة التـي قتلـت فيهـا قـوّات يهوديّـة سُـكّانًا ومقاتلـين عُـزّلًا. مثـالُ ذلـك «حملـة حـيرام» في الجليـل التـي جـرت في تشريـن الأوّل/ أكتوبـر، التـي وقعـت خلالهـا مجـازر في قُـرى مجـد الكـروم والصفصـاف وعيلبـون والبعنـة ودير الأسـد ونحـف والجـش وسعسـع، وغيرهـا. كانـت أنمـاط الأحـداث متشـابهة في هـذه الأحـداث: بعـد احتلال القريـة أُخِـذ عـدّة رجـال إلى سـاحة البلـد الرئيسـة، والذيـن اختلفـت أعدادهـم مـن قريـة إلى أخـرى، ثـم أُعدِمـوا بـدم بـارد. ثـمّ طُلـب مـن سـائر السـكّان أن يبـدأوا بالسّـير إلى لبنـان وإلّا لاقـوْا مصيـرًا مشـابهًا. ثمّـة أهميّـة كبـيرة في بحـث هـذه الحـالات ومناقشـتها، ومـن المهـمّ أيضًـا عـدم إغفـال الإطـار العـامّ الـذي وقعـت فيه هـذه الأحـداث: حـرب مـن التهجـير والنهـب والاسـتبدال (والمقصـود بالاسـتبدال عمليّـة توطـين اليهـود في بيوت أو

عـلى أراضي الفلسـطينيّين المُهجَّريـن).

نحـن لا نعـرف مَـن قـاد الشـاحنات أو الحافـلات التـي نقلـت سُـكّان الطنطـورة إلى الفريديـس في سـاعات ظهـيرة يـوم الأحـد ٢٣ أيـار ١٩٤٨، ولـم أنجـح بالعثـور عـلى تفاصيـل بشـأن هُويّـة الأشـخاص الذيـن اسـتدعوْا السـيّارات وهُويـة مـن قادهـا. لكـن يبـدو أنّ الجيـش هـو الـذي خصّـص عـدّة شـاحنات عسـكريّة مـن صنـع بريطانـيّ ومعهـا شـاحنات مدنيّـة. هـل كسـبتْ شركـة سـفريّات خاصّـة النقـودَ مـن عمليّـة الطـرد؟ بـين سـاعات الصّبـاح وسـاعات الظهـيرة المبكـرة كان سـكّان القريـة عنـد شـاطئ البحـر. وفي سـاعات الظهـيرة (بـين الواحـدة والثالثـة وفـق الشـهادات) نقـل الجنـودُ النسـاءَ والأطفـال والمُسـنّين عـبر منـازل القريـة إلى منطقـة تقـع بجـوار مبنـى معمـل الزجـاج وهُنـاك أُصعِـدوا إلى الشـاحنات. «نقلونـا إلى الفريديـس ووصلنـا إلى هنـاك بحـدود السّـاعة الواحـدة أو الثانيـة ظهـرًا. {الطقـس} كان كيـوم صيفـيّ عـاديّ»، قـال عبـد الجبّـار سَـليم أبـو الشُـقر.

عندمـا سـألتُ الجنـود الذيـن قابلتُهـم عمّـا حـدث مـع سـكّان الطنطـورة، كانـوا يصمتـون في أغلـب المـرّات. أمّـا عميتسـور كوهِـن فأجـاب: «طلبـوا منهـم الصعـود، فَصَعـدوا. سُـمعتْ أصـوات بُـكاء. لـن أُنكـر أصـوات البـكاء». مـن الصّعـب معرفـة مـا إذا كان الجنـود يعرفـون المزيـد مـن التفاصيـل لكنّهـم امتنعـوا عـن سردهـا، أم أنّهـم ذوّتـوا مـع مـرور السّـنوات أسـطورة أنّ الفلسـطينيّين نهضـوا ورحلـوا بـكلّ بسـاطة، أم أنّهـم مَحوْهـم تمامًـا مـن ذاكراتهـم، ومـن الجائـز صـوابُ الاحتمـالات الثلاثـة.

إلّا أنّ شـاهدًا واحـدًا روى قصّـة مختلفـة. ففـي الخامـس مـن أيّـار ١٩٩٦ اجتمـع قُدامـى الكتيبـة ٣٣ في غرفـة الطعـام التابعـة لكيبوتـس نحشـوليم لتنـاول الوجبـة التقليديّـة التـي تـلي طقـس يـوم الذاكـرة المُخصّـص لقتـلى المعـارك. وقـد أجـرت عاملـة الأرشـيف خوهاليـه، المثابـرة والتـي لا تـكلّ، لقـاءات شـفويّة حـول هـذه المعركـة. وفي صيـف ٢٠١٠ روت لي القصّـة التاليـة، تتعلـق بأحـد الجنـود وهـو أفرهـام أمـير، الـذي سـبق والتقينـا بـه عندمـا اسـتخفّ بالخيـال الشرقـيّ المُجنّـح لـدى سـكّان الطنطـورة الذيـن ادّعـوا حصـول مجـزرة. لقـد طلـب أمـير مـن خواهليـه إطفـاء آلـة التسـجيل. «لم أرَهُ {أمـير} يحـضر طقـوس أيـام الذاكـرة في الطنطـورة منـذ سـنوات عديـدة»، قالـت لي، «لكـنّ ثمّـة أمـرًا واحـدًا أذكـره. في أحـد هـذه الطقـوس {عـام ١٩٩٦} اقـترب منّـي في غرفـة الطعـام، وكان هـذا قبـل نحـو عـشر سـنوات عـلى الأقـلّ، وقـال لي إنّـه رأى الشـاحنات المُحمّلـة بالعربيّـات تغـادر الطنطـورة {إلى الفريديـس}، وكيـف أنّهـا مـرّت بالشـاحنات التـي كانـت مُحمّلـة بالرجـال والمُغـادرة صـوب الاتّجـاه الآخـر. الـصراخ والعويـل والنـواح سـاد المـكان وقتهـا- وهـو لـن ينسـاها طيلـة حياتـه». ثـمّ أضافـت خوهاليـه: «هـذا يُقـال لـكلّ مـن

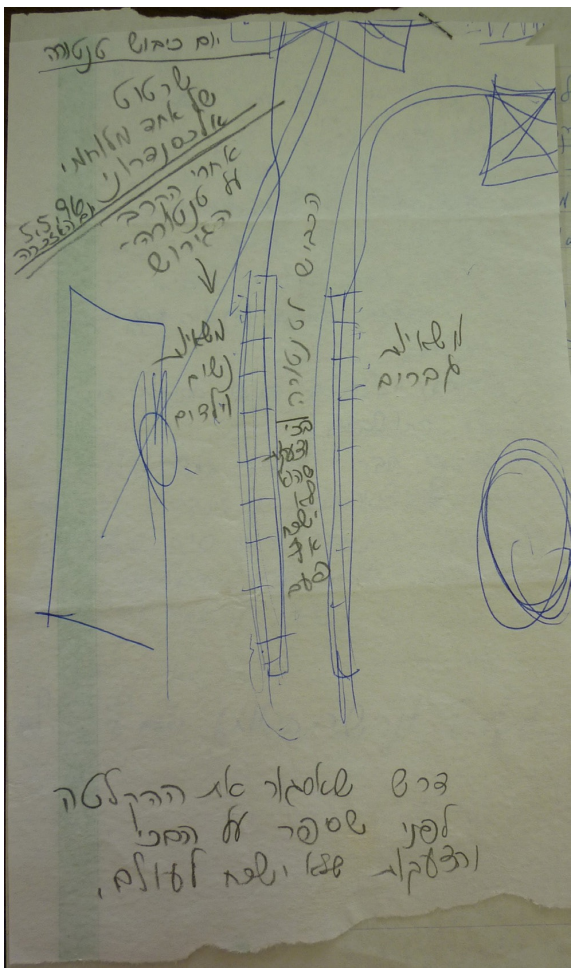

■ الصـورة: التخطيـط الـذي رسـمه أفرهـام أمـير، وتفسـيرات خوهاليـه (وفـق أمـير) التـي أضافتهـا: «تخطيـط مرسـوم لواحـد مـن مقاتـلي ألكسـندروني ٩٦/٥/٥ يـوم الحفـل التـذكاريّ، طلـب منّـي إغـلاق آلـة التسـجيل قبـل أن يحكـي عـن البـكاء والـصراخ اللذيْـن لـن ينسـاهما». (بلُطـف مـن أرشـيف كيبوتـس نحشـوليم)

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

لم يكن من وراء طرد سُكّان الطنطورة أيّ سبب عسكري. كانت الغاية الوحيدة من وراء ذلك تحويل الطنطورة إلى جزء من دولة يهوديّة قوميّة مُتجانسة. وكما سبق ورأينا، فإنّ التقارير الاستخباراتيّة لكتيبة ألكسندروني أدّعت أنّ القرية مستعدّة للاستسلام قبل أو بعد المعركة، في حال ضُمنت المعاملة النزيهة مع السُّكان.

ينفي وقوع الطرد. بالتأكيد حصل طرد»، وعندها أعدّ أمير تخطيطًا مرسومًا كي يُضفي على أقواله بُعدًا شكليًّا، وأعطى هذا التخطيط لخوهاليه.

لم يكن من المفترض أن يصل هذا المُستند إلى يدي أيّ مؤرّخ، لأنّ أمير لم يكن يتصوّر للحظة أنّ خوهاليه ستحتفظ به، وأنّني سأجد قطعة الورق الصغيرة هذه في أرشيف نحشوليم بعد كلّ هذه السّنوات. لكنّ هذا ما حدث فعلًا: شهادة واحدة، وتخطيط مرسوم واحد، وشعور بالذنب مكظوم، تجلّى وانكشف عبر كلّ هذه السّنوات. بعد عدّة سنوات على ذلك، وعند تفجّر قضيّة الطنطورة، أنكر أمير وقوع المجزرة ولم يتحدّث عن طرد السكّان.

عاش نازحو الطنطورة في الفريديس وسط ظروف حياتيّة صعبة للغاية؛ فخلال يوم واحد أضحوْا من دون مُمتلكاتهم وغذائهم وأراضيهم، ليعيشوا وسط اكتظاظ ومن دون ترتيبات غذاء أو مبيت أو تدابير طبيّة. وفي يوم ١٨ حزيران ١٩٤٨، وبعد مكوث طال نحو ثلاثة أسابيع في الفريديس، طُرد كل من النساء والأطفال والمُسنّين من الطنطورة إلى طولكرم التي كانت خاضعة للسيادة الأردنيّة. وقد مارست إسرائيل الضغوطات على وُجهاء قرية الفريديس -وكان أهلها يُشكّلون مجتمعًا كبيرًا سُمح لهم بالبقاء ضمن نطاق الدولة- من أجل إخراج أكبر عدد مُمكن من اللاجئين الذين لجأوا إلى القرية من البلدات المُجاورة. وقد جرى تجنيد «الصليب الأحمر» للمساعدة في الحفاظ على سلامة وأمن ١,٠٠٤ لاجئين (توجد تقديرات أخرى لهذا العدد)، لكنّ الهدف الأهمّ من وراء ذلك كان منح الشرعيّة الدَّوليّة لطرد السُّكان، إذ إنّ الدولة سعت إلى إسباغ عمليّات الطرد بالشرعيّة القانونيّة. ومن الواضح أنّ أحدًا لم يسأل سكّان الطنطورة ولم يأخذ برأيهم بجديّة، على الرغم من أنّ بيوتهم كانت على مسافة قصيرة من الفريديس، وسعيًا للدقّة نقول إنّهم أُعتبروا من سكان إسرائيل وفق قرار التقسيم وفي ضوء إعلان قيام الدولة.

كان الطرد موثّقًا ومُنظّمًا كما يجب. ففي يوم ١٦ حزيران أدلى أ. چولدفيرب الضابط في كتيبة ألكسندروني، بوصف للعمليّة عبر مُذكّرة رفعها إلى ضُبّاط كبار في الكتيبة وفي القيادة العامّة للجيش الإسرائيليّ: «المبحث: نقل نساء وأطفال الطنطورة إلى الخطوط العربيّة. ١. وفقًا لأوامر القيادة العامّة لقسم الموارد البشريّة/١ يتمّ نقل كلّ النساء والأطفال العرب من الطنطورة الموجودين في الفريديس. ومعهم أيضًا كلّ المُسنّين والمرضى الموجودين في حظيرة أم الوليد إلى الخطوط العربيّة. ٢. تنفيذ النقل فعليًّا يوم ١٨/٦/٤٨. ٣. قسم المواصلات سيوفر سيّارات لنقل نحو ١,٨٠٠ شخص من الفريديس إلى كفار يوناه {...} ٤. قسم الخدمات الطبيّة سيُوفّر سيّارات إسعاف ومُضمّدين لمرافقة القافلة {...} ٧. يجب على كلّ السيّارات والمرافقين أن يحضروا عند شارع تل أبيب – حيفا بمحاذاة مدخل الفريديس قبل السّاعة ٠٨:٠٠ يوم ١٨/٦/١٩٤٨». كانت السّلطات الإسرائيليّة راغبة بالإشراف على المسار بأكمله، ومعرفة مَن الذي سيُنقل ومتى وإلى أين ومن أين، وفي نهاية الأمر طلب چولدفيرب الحصول على قائمة دقيقة بأسماء المنقولين، تشمل الأسماء الخاصّة وأسماء العائلات، والأعمار و«أماكن السكن»، قاصدًا أماكن السكن السابقة ليوم الطرد. وهكذا صارت الطنطورة الفلسطينيّة ذاكرةً بعد أثر.

جرت عمليّة الطرد علانية عبر ثلاثين حافلة تابعة لشركة «أيچد»، بمرافقة صحافيّين ومُصوّرين.

وقد عرضت جريدة «دَڤار» الطردَ على أنّه خطوة إنسانيّة: «أولئك الذين رغبوا بالانتقال طواعية»، هم الذين فعلوا ذلك. لكنّ المراسل تساءل حول هذه النهاية الجيّدة كاتبًا: «سائقو «أيچد» قالوا لي إنّه حتّى أولئك الذين عبّروا عن موافقتهم على الانتقال إلى المنطقة العربيّة لم تبدُ عليهم الرغبة الكبيرة وهم على وشك إدخالهم إلى الحافلات. ثم أطلقت امرأة واحدة صوتها بالعويل، فانضمّ جميع النساء والأطفال إليها باكين».

ظلّ قسم من المطرودين والمطرودات في طولكرم، وبعضهم حضروا إلى الخليل. كان الشتاء باردًا ومات أطفالٌ رُضّع. من الخليل انتقل بعضهم إلى سورية. «كُنّا شبه عُراة، وكُنّا مُعدمين تمامًا»، يتذكّر الكثير منهم الثلجَ.

لم يكن من وراء طرد سُكّان الطنطورة أيّ سبب عسكري. كانت الغاية الوحيدة من وراء ذلك تحويل الطنطورة إلى جزء من دولة يهوديّة قوميّة مُتجانسة. وكما سبق ورأينا، فإنّ التقارير الاستخباراتيّة لكتيبة ألكسندروني أدّعت أنّ القرية مستعدّة للاستسلام قبل أو بعد المعركة، في حال ضُمنت المعاملة النزيهة مع السُّكان. الجزء الثاني من أحد التقارير تطرّق إلى زُبدة المسألة: «من الجدير الأخذ بعين الاعتبار مدى مصلحتنا ببقاء السكّان في مكانهم». لكن لم تكن مصلحة كهذه؛ فقد تقاسم البيشوڤ اليهوديّ خيالًا سياسيًّا مشتركًا، مُؤدّاه تقليص عدد الفلسطينيّين في الدّولة. ولم يكن هناك أيّ جنديّ يهوديّ يخشى من تقديمه للمحاكمة بسبب طرد الفلسطينيّين أثناء الحرب، وبالفعل لم يُقدّم أيّ جنديّ للمحاكمة جراء هذه المُمارسات أثناء سنة ١٩٤٨ وبعدها.

يُجسّد الطرد من الطنطورة أنماطًا واسعة من الحرب، حيث إنّ الفلسطينيّين طُردوا على طول وعرض البلد، سواءً أَجَرى هذا الطرد عبر العنف الجسديّ أم أنّهم فرّوا خوفًا من القوّات اليهوديّة.

في نهاية المطاف تركت عائلة السّكاكيني حيّ القطمون في القدس نهاية نيسان ١٩٤٨، بعد أن وصلتها أوزار الحرب. غادروا في سيّارة أجرة إلى القاهرة. في تلك الأيّام كانت الغالبيّة الكبيرة من سكّان غربيّ القدس قد غادروا خوفًا من الحرب ومن الأخبار التي انتشرت حول مجزرة دير ياسين، وانتقلوا للسكن لدى أقربائهم في شرقيّ المدينة أو في مكان آخر في الشام. وقد أوصدوا الأبواب من ورائهم تاركين البيوت كما هي، لأنّهم كانوا يُخطّطون للعودة إليها قريبًا. وقد سبق وطُرد سكّان حيّ الطالبيّة في القدس في شباط ١٩٤٨: «عرب الطالبيّة يغادرون بناءً على طلب الهَجاناه»، كتبت صحيفة دڤار في يوم ١٢ منه. «سيّارة الهَجاناه سارت بعد ظهيرة أمس في حيّ طالبيّة ودعت العرب لإخلائه، وقد غادره الكثير من العرب».

«مرّت على وجودنا في مصر اليومَ ثمانيةُ شهور»، كتب السّكاكينيّ. «بين يوم الجمعة الموافق ١٩٤٨/٤/٣٠ وبين يوم السبت الموافق ١٩٤٩/١/١... لم يخطر ببالنا أن مكوثنا في مصر سيطول ثمانية أشهر، وفقط الله يعلم متى وكيف سينتهي الأمر [...] الوداع يا مكتبتي! لست أدري ما حلّ بكِ بعد مغادرتنا البلاد، أَنُهبتِ؟ أَحُرقتِ؟ أنقلت معززة مكرمة إلى مكتبة عامة أو خاصة، أصرتِ إلى دكاكين البقالين يلف بأوراقك البصل»؟

كانت عمليّات طردٍ أخرى مصحوبة بعنف أكبر وأكثر. فقوّة عسكريّة إسرائيليّة احتلّت اللد في تموز ١٩٤٨، وقد ترك بعض السكّان من ورائهم مذكّرات وشهادات حول ما حدث، تستوي كلّها مع شهادات مقاتلين يهود كشفوا عن مكنونات صدورهم. من أجل إيراد توصيفات قصيرة لما حدث استندتُ إلى شهادات سبيرو مُنيّر (Munayyer) ورجاء بُصيلة (Busailah) وجورج حبش (Habash) الذين كانوا من سكّان البلدة أثناء احتلالها؛ وإلى أهرون كوپرمان ويرحميئيل كهانوڤيتش وإليعازر شمعوني وبنيامين عيشت، الذين كانوا من مقاتلي كتيبة يفتاح التي احتلّت المدينة؛ ويوسف نيخت الذي أدلى بشهادته حول عمليّات القتل في الطنطورة وكان من الذين شاركوا في احتلال اللد؛ ونتيڤاه بن يهودا المقاتلة في البَلماح؛ وإسحق رابين، ضابط الاستخبارات في جبهة المركز ونائب قائد «حملة داني» التي أُحتلّت اللّد خلالها. بتصديق من بن غوريون، كان يچآل ألون، قائد البلماح و«حملة داني»، ومعه نائبه رابين، مسؤولَيْن عن طرد السُّكان. وقد صدر أمر الطّرد من مركز قيادة الحملة السّاعة ١٣:٣٠ بعد الظهر في يوم ١٢ تموز ١٩٤٨ إلى كتيبة يفتاح وكتيبة ٨: «يجب طرد السكّان من اللد بسرعة ومن دون الاهتمام بتصنيف الأعمار. يجب توجيههم صوب بيت نبالا

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

■ صورة أرشيفية للطنطورة في حقبة الانتداب البريطاني. (صحف)

شرقيّ اللّد {...} للتنفيذ الفوريّ. إسحق ر.».

حضر الكثير من السُّكان إلى مسجد دهمش للاحتماء فيه؛ وقد ظنّوا أنّ الجنود لن يجرؤوا على الاعتداء على مكان مُقدّس، لكنّهم قُتلوا في داخله. وقد روى كهانوڤيتش كيف أطلق النار إلى داخل المسجد عبر مدفع «فيات»، ما أحدث ثقبًا صغيرًا «في الحائط فيما كان الجميع مسحوقين على الجدران نتيجة للضغط». وقال عيشِت إنّهم «قضوْا على ١٢٠ شخصًا داخل المسجد». ويقول هو وبن يهودا معه إنّهما لا يرغبان بالحديث عن الأمر، لأنّ هناك أمورًا يجدر عدم الحديث عنها. لقد وقعت عمليات قتل واسعة في الشّوارع. ووفق شهادات اليهود وقع ٢٥٠ قتيلًا من المدنيّين، وكان عدد الفلسطينيّين نحو ٤٠٠ شخص. وقد بدأت الطرد وأعمال النهب على الفور، إذ تنقّل الجنود من بيت إلى آخر، وأمروا السُّكان بمغادرة المدينة. كان الطقس حارًّا جدًّا، نحو ٣١ درجة في الظلّ، وسط شهر رمضان آنذاك. بين ٥٠,٠٠٠ و٧٠,٠٠٠ فلسطينيّ كانوا يتنقّلون على الطرقات، قافلة طويلة من اللاجئين مع أمتعتهم القليلة، فيما كان الجنود يطلقون النار فوق رؤوسهم كي يُسرعوا من خطواتهم. وقد ضرب الجنود حواجزَ على طول الطريق بغية البحث عن النقود والجواهر لدى المطرودين؛ فصادروها. أمّا كوپرمان فسمع أنّ الجنود انتزعوا أسنانًا ذهبيّةً من أموات فلسطينيّين. وقد نُهبتْ كلّ بيوت المدينة وأُفرِغتْ، في حين أثارت مناظر اللاجئين لدى بعض الجنود مشاهدَ من الماضي؛ وتحدّث شمعوني عن ناجٍ من المحرقة أصيب بالترومـا والصدمة. أمّا يوسف نيخت الذي شارك في احتلال المدينة فظلّ مصدومًا صدمة مُجلجلة جراء طرد الفلسطينيّين وجراء قساوة الجنود تجاه السكّان. كانت الطريق من اللّد مزروعة بجُثث الفلسطينيّين من النساء والأطفال والمُسنّين الذين قضوْا جراء الإنهاك والجفاف. فيما بعد تذكّر حبش: «هذه الصورة حُفرت عندي، ولا يمكنني نسيانها قط. ثلاثون ألف شخص يمشون، باكين {...} يصرخون من الخوف {...} نساء مع رُضّع على أذرعهنّ وأطفال يُساقون، يُمسكون بفساتينهنّ {...} فيما الجنود الإسرائيليّون يحثّونهم على المضيّ قدمًا مستخدمين أسلحتهم. وكان هناك أشخاص وقعوا إلى جانب الطريق، ومنهم من لم ينهضوا ثانيةً».

أم خالد مسلمة من أبو غوش اختبأت في الدير المحليّ خشية أن يلحق بها الأذى من الجنود اليهود الذين دخلوا القرية. وُلدتْ في أبو غوش، وبعد ذلك -عمرها ٧٢ عامًا- تحدّثتْ عن حياتها لمشروع يخصّ حياة النساء الفلسطينيّات في القرن الماضي. أنهت الصفّ الأوّل ولم تكن تعرف القراءة والكتابة. في سنّ

الرابعة عشرة زوّجوها بابن عمّها من أبو غوش، وكان عمره وقتها ٢٢ عامًا، ويعمل في حقول المزارعين التابعة للدير. في بداية زواجهما كانا مُقِلّيْن جدًّا في الحديث، ولم يتحادثا البتة بحضور الأغراب أو أفراد العائلة الآخرين. وعلى مرّ السنوات أنجبت «٢٢ بطنًا»، وفي العام ١٩٤٨ أيقن أهل القرية أنّ الحرب آتية لكنّهم لم يعرفوا متى. كان الناس خائفين، وبدأ الكثيرون بترك المنطقة الخاضعة للسّيطرة الأردنيّة وهم يحملون بضعة حقائب، وكانوا يُخطّطون للعودة. كانت أختها جليلة متزوّجة من مختار القرية حمد، الذي أعطاه الإنجليز عشر بنادق لحماية القرية. «هل تتخيّلين»، تقول لُمحدّثتها، «عشر بنادق للجميع؟» كان حمد يعرف أنّ حظوظهم ميئوس منها. هكذا ظلّت أم خالد في القرية، ووصلها اليهود في حزيران ١٩٤٨ حين ظلّت قرية أبو غوش القرية العربيّة شبه الوحيدة على طول ممرّ القدس. كان الأمر مخيفًا فاختبأت هي وأشخاص آخرون ظلّوا في القرية لدى الرُّهبان في الكنيسة. في شهادتها لم تتطرّق إلى التفاصيل حول مشاعرها في تلك السّاعات لذا يترتّب علينا أن نتخيّل بأنفسنا ما كانت تعيشه. عثر اليهود عليها، فظنّت أنّهم سيُطلقون النار على الجميع. وقفوا ساعاتٍ في ساحة القرية وفي النهاية أُطلِق سراحهم. لقد استجيبت صلواتها.

تنقّل مئات آلاف الفلسطينيّين الذين هربوا أو طُردوا من بيوتهم عبر أرجاء البلد خلال الحرب: فحرب ١٩٤٨ تميّزت بكونها حربَ تنقّلات بشريّة من دون توقف، ولم يقتصر ذلك على المقاتلين فحسب، بل وخصوصًا الفلسطينيّين الذين ملأوا الطرقات والمناطق الطبيعيّة، يسيرون مع أمتعتهم من هنا إلى هناك، ومن مخبأ إلى مخبأ، من قرية إلى أخرى، بعضهم يُطرد وبعضهم يفرّ من القوّات اليهوديّة. وحتّى يومنا هذا لم تجد هذه التنقّلات البشريّة مكانًا لها في الكتابة التاريخيّة عن الحرب. كان حسين خليل عوّاد وعائلته موجودين في قريتهم السّومريّة، على بُعد نحو ستّة كيلومترات شماليّ عكّا، عندما وصلتهم الحرب في شهر أيّار. لم تكن القرية تحظى بأيّ حماية تُذكر، وكانت وعودات جيش الإنقاذ العربيّ بحماية السكّان وعوداتٍ كاذبة. اصطحب حسين خليل عائلته إلى عكّا طامعًا بالأمان فيها. وعندما اشتدّ الوضع في عكّا انتقل مع عائلته إلى الغابسيّة، التي تقع شماليّ قريتهم. ووقتها كان قد فقد الأمل بقدرة القوّات العربيّة على مواجهة اليهود. ظلّوا في الغابسيّة إلى أن سقطت هذه القرية أيضًا في ٢٠-٢٢ أيّار وطُرد سكّانها إلى عمقا المجاورة. ومن هناك عاد حسين خليل إلى الغابسيّة لأخذ بعض الأغراض التي خلّفها في القرية، وبعد عودته انتقلت العائلة إلى بلدة أبو سنان الدرزيّة، إلى أن أُحتلّت هذه القرية أيضًا في ١٠ تموز. ومن هناك انتقلوا مع عدّة عائلات إلى ترشيحا، التي تبعد نحو ١٥ كيلومترًا.

وقد مكثوا هناك حتّى نهاية تشرين الأوّل حين أُحتلتْ ترشيحا في «مخطط حيرام». بعدها هرب أو طُرد سكّان ترشيحا المسلمون؛ فقد تميّز «مخطط حيرام» بقساوة اليهود تجاه السكّان المدنيّين الفلسطينيّين. ثم انتشرت الشائعات حول ذلك بسرعة، ومن المُمكن الافتراض أنّ حسين خليل وعائلته سمعوا بذلك. في هذه الأثناء مرّ مزيد من الوقت: كانوا قد تركوا بيتهم في السّومريّة في شهر أيّار، قبل نحو خمسة شهور ونصف الشهر، ومن وقتها ظلّوا من دون مأوًى أو مصدر رزق، ومن دون مصادر غذاء آمنة، لا يعرفون ما سيؤول إليه مصيرهم. إنّ قصّة الرحّالة الفلسطينيّين أثناء الحرب في ضمن حدود فلسطين الانتدابيّة شأنٌ مركزيّ لفهم ١٩٤٨: نحن نتحدّث عن تنقّلات لآلاف الفلسطينيّين ممّن كانت مصائرهم مشابهة لمصير عائلة حسين خليل، في الطرق والسير على الأقدام حاملين الصُّرر القليلة، هاربين من القوّات المقاتلة اليهوديّة. عبر حركتهم البشريّة هذه حملوا معهم مشاعر القلق الشديد والحصر النفسانيّ التي تفشّت بين السكّان الفلسطينيّين. في الطرق التقوْا لاجئين آخرين، وفي القرى تعشّموا إكرام الضيف. عاشوا على التقاط الشائعات التي لعبت دورًا مركزيًّا في نشر المعلومات وخلق الأخيلة والتخيّلات. لقد كانوا جزءًا من لعبة «القط والفأر» مع القوّات اليهوديّة: هم يحاولون الاختباء والبقاء والعودة إلى قراهم، وهؤلاء يسعوْن لطردهم وراء الحدود. وعندما أدرك حسين خليل وعائلته أنّ اليهود يسيطرون على الجليل ضاقت السُّبل أمامهم فانتقلوا إلى لبنان ولم يعودوا قط.

بدأ اقتلاع الفلسطينيّين وتهجيرهم فورَ بدء

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

في مطلع كانون الثاني ١٩٤٨ كتب يوسف ڤايتس، والد يحيعام، إنّ منهج "الهَچناه" المُتبع في العمليّات العقابيّة مقبول على غالبيّة اليشوڤ اليهوديّ، رغم وجود "بعض المُتوانين، رَبيبي الثقافة الغربيّة-المسيحيّة، الذين يرفضون هذا النهج ويخشون المسّ بالأبرياء «...» «هذا» تغاضٍ مُتنزِّه ومُتبطّل ومَنفويّ «...» «العربيّ» حين يتذوّق طعم دماء غيره تشتعل غريزته وتتعاظم رغبته بالدم".

الحرب. هذا ما حدث مثلًا في القدس، حين هاجمت «الهَچاناه» و«ليحي» الأحياء العربيّة روميماه وشيخ بدر (حيث يقع الكنيست اليوم) ولفتا، التي فرغت من سكّانها خلال أسابيع معدودة. وفي تل أبيب حوّطت «الهَچاناه» و«أيتسل» قرى الشيخ مونّس (منطقة جامعة تل أبيب) والصُمّيل (منطقة مركز تل أبيب بجانب مفترق شارعي إبن چڤيرول وأرلوزوروڤ) والجمّاسين (منطقة «كيكار هَمْدِيناه») من أجل إفراغها من سُكّانها. لقد سلبوا كلَّ مكان متروك. والشهادة الأولى على الاقتلاع والاستبدال هي على ما يبدو ما حدث في ١١ كانون الأول ١٩٤٧ في الصُمّيل، حين دخل يهود للسّكن في بيوت فلسطينيّين، وكان هؤلاء اليهود لاجئين تركوا بيوتهم الواقعة عند خطّ التّماس بين تل أبيب ويافا. وهكذا تحوّل اقتلاع الفلسطينيّين إلى طقس ثقافيّ: في مطلع كانون الثاني ١٩٤٨ أحرق اليهود حيّ صُمّيل «بشكل علنيّ أمام الجميع، وشارك في هذه العمليّة مئات الأطفال الفرحين والمُبتهجين وبحضور الكبار معهم. لم يقف شخص واحد للتصدّي لهم»- جاء في جريدة «عَل هَمشمار». كانت الدلالة الرمزيّة والفعليّة لإحراق القرية واضحة: أنّهم لن يعودوا.

منذ شهر كانون الأوّل ١٩٤٧ عبّر بن غوريون ويچآل ألون ويسرائيل چاليلي، رئيس القيادة القطريّة للهَچاناه، عن دعمهم لأذيّة المدنيّين الأبرياء، أي أنّهم حوّلوا السُكّان المدنيّين الفلسطينيّين إلى أعداء. وتتضح من خلال المذكّرات والرسائل التي كتبها من عايشوا تلك الفترة روحُ التضحية العميقة في سبيل تحقيق الاستقلال السياسيّ والخوف من الآتي، ومعها مشاعر عنف عميقة لا تقلّ حدّتها تجاه السكّان المدنيّين الفلسطينيّين. وقد وصف شاي حزكاني ذلك في كتابه پلستينا العزيزة على أنّه «احتفال بالعنف». «أليس بوسعنا إنهاء {الحرب} بوساطة القتل المتعمّد والذبح والتفجير التي ستُنهي الأحداث، حتّى لو كلّف ذلك سفك الكثير من الدماء (دماؤهم لا دماءنا)؟» كتب أحد الجنود في ٢٣ كانون الأوّل ١٩٤٧. ويظهر موتيف الانتقام مرّات كثيرة، وهو انتقام من العرب جرّاء مقتل أصدقاءٍ وانتقام من العرب على أفعال النازيّين. «أحيانًا يستشيط غضبك، وترغب بالإمساك بالرمح وبالذبح والانتقام النهائيْن. لم أشعر للآن بأيّ شعور يشبه شعور الانتقام القويّ والكريه، يا ابنة، أحيانًا لا يمكنك فهم السبب، فهم الغاية. تبًّا! نحن خُلقنا بشرًا فلماذا علينا أن نتقن الذبح؟» كتب جنديّ آخر، كان يشعر بالخوف من مشاعر العنف التي اجتاحته.

في مطلع كانون الثاني ١٩٤٨ كتب يوسف ڤايتس، والد يحيعام، إنّ منهج «الهَچناه» المُتبع في العمليّات العقابيّة مقبول على غالبيّة اليشوڤ اليهوديّ، رغم وجود «بعض المُتوانين، رَبيبي الثقافة الغربيّة-المسيحيّة، الذين يرفضون هذا النهج ويخشون المسّ بالأبرياء {...} {هذا} تغاضٍ مُتنزِّه ومُتبطّل ومَنفويّ {...} {العربيّ} حين يتذوّق طعم دماء غيره تشتعل غريزته وتتعاظم رغبته بالدم». كان ڤايتس ناشطًا مركزيًّا في الحركة الاستيطانيّة وفي طرد الفلسطينيّين أثناء الحرب. وفي مطلع حزيران، بعد أسبوعيْن أو ثلاثة من تأسيس الدّولة، حصل على تصريح من بن غوريون ومن موشيه شرتوك (شَريت، لاحقًا) لبدء حملة تدمير للقرى التي طُرد سُكّانها أو فرّوا، بعضهم أصبحوا نازحين في دولة إسرائيل، والذين كانوا من سكّان الدولة وفق قرار الأمم المتحدة: «زُرت قرية المغار. ثلاث جرّافات تستكمل هدمها. تعجّبتُ من أنّ مشاهد الهدم لم تُحرّك عندي ساكنًا. لم أشعر بالندم أو الكراهية، وكأنّ هذه هي

سُـنّة الحيـاة. نعـم، نحـن نريـد أن نتمتّـع بهـذا العالـم لا في العالـم القـادم».

في يـوم الإعـلان عـن الدولـة رسـم عميهـود تسـور، وكان في الثامنـة عـشرة وقتهـا مـن مواليـد كفـار يهوشـع وجنـديّ في «البلمـاح»، عـدّة خطـوط عريضـة لإقامتهـا: «في الليـل خرجنـا لاحتـلال قريـة قالونيـا العربيّـة الكبيرة. في البدايـة قصفـوا القريـة بقذائـف الهـاون، وسُـمعت من بعيـد أصـوات النسـاء والرجـال والأطفـال وهـم يبحثـون عـن بعضهـم البعـض أثنـاء الهـرب. وصلنـا إلى القريـة في سـاعات الصبـاح واحتللنـا وقصفنـا البيـت تلـو الآخـر. لا توجـد متعـة أكـبر مـن أن تسـمع عـن بُعـد أصـوات الهاربـين وصراخهـم. كانـت القوافـل تـروح وتجـيء ونحـن واصلنـا في هـذه الأثنـاء احتـلال القريـة تلـو الأخـرى... (كانـت أم خالـد مـن قريـة أبـو غـوش المجـاورة تعـرف لمـاذا اختبـأت في الكنيسـة). كتـب عميهـود في رسـالته عـن نشـاطاته في الأسـابيع التـي سـبقت ١٥ أيّـار. وقـد اُحتلّـت قالونيـا الواقعـة عـلى الطريـق عنـد مخـرج القسـطل في ١١ نيسـان، وهُدمـت بيوتهـا بالكامـل. بعـد ذلـك أقيمـت عـلى أراضي القريـة «مِقْسـيرت تسـيون».

أمّـا يـوآف بـيرون فكتـب بانفعـال عـن خوفـه مـن المـوت ومـن اندثـار الشـعب اليهـوديّ، وفصّـل إنجـازات «حملـة حـيرام» لاحتـلال سـائر الجليـل في شـهر تشريـن الأوّل: «قوافـل اللاجئـين مـلأت الشّـوارع. قوافـل طويلـة مـن المُسـنّين والنسـاء والأطفـال في الغالـب {...} حملـت الأمّهـات أطفـالًا عـلى ظهورهـنّ، ومـن ورائهـنّ سـار طفـلان أو ثلاثـة. ومـع كل كيلومـتر إلى الشـمال ازدادت أمتعـة اللاجئـين التـي خلّفوهـا مـن ورائهـم. مُسـنّ لـم يسـتطع مجـاراة سـير القافلـة ومعـه ابنتـه التـي تسـتحثّه عـلى الإسراع. سـار اللاجئـون محنيّـي الظهـور وعيونهـم مغـروزة في الأرض». ثـم لخّـص بـيرون الحملـة: «الفـرح يعـمّ إسرائيـل. كانـت خلاصـة المعركـة ربحًـا صافيًـا {...} الكتيبـة التـي انتقلـت إلى قاعدتهـا بعـد المعركـة كانـت نشـطة وممتلئـة بالحيـاة؛ يرقصـون ويُغنّـون. كانـت نفـوس الجنـود جذلـة وهـم يُغنّـون بأصواتهـم العاليـة». لقـد راوَحَ الوصـف بتطـرّف بـين المعانـاة والسّـعادة، لكنّـه أبـى الربـط بـين الاثنتـيْن؛ لا أحـد مسـؤول عـن قوافـل اللاجئـين وهـي تسـير مـن دون سـبب. إنّهـا ببسـاطة هنـاك كمـا لـو أنّهـا ظاهـرة طبيعيّـة.

في الملـف الشـخصيّ ليوسـف ڤشـيتس الموجـود في أرشـيف «يَـد يعـاري» في چڤعـات حبيبـه، وبـين مسـتند مـن حزيـران ١٩٤٨ وتقريـر مـن سـنة ١٩٥٠، عثـرتُ عـلى ورقـة صغـيرة فيهـا التوصيفـات التاليـة بخصـوص أفعـال جنـود أثنـاء «حملـة حـيرام» لاحتـلال الجليـل الأعـلى المركـزيّ في تشريـن الأوّل ١٩٤٨:

الصفصـاف- أمسـكوا بـ ٥٢ رجـلًا وقيّدوهـم الواحد إلى الآخـر، ثـم حفـروا حفـرة كبـيرة وأطلقـوا الرّصـاص عليهـم. كان عـشرة منهـم مـا يزالـون يلفظـون أنفاسـهم الأخـيرة، وجـاءت النسـاء مُسـترحمات. عثـروا عـلى جثـث ٦ مُسـنّين. كانـت ٦١ جثّـة وثـلاث حـالات اغتصـاب. شـخص مـن صفـد، طفلـة عمرهـا ١٤ عامًـا، أطلقـوا الرصـاص وقَتلـوا، قطعـوا بالسـكّين أصابـع أحدهـم، كـي يأخـذوا الخاتـم.

الجـش- ٤٠٠ نسـمة. امـرأة تحتضـن طفـلًا- الاثنـان ميتـان. ٤ نسـاء و١١ جنديًّـا قتـلى.

«حرس المشمار»

يمحـو كلّ شيء. قامـت الكيبوتسـات بعمليـات نهـب. كفـار چلعـادي ٥ سـيّارات طحـين؛ عـين الزيتـون «حـرس المشـمار» اسـتباح كلّ شيء. قطعـوا آذان نسـاء لأخـذ الأقـراط.

برعـم- المشـهد نفسـه. أقـراط مـع آذان. قتـل مـن دون سـبب.

سعسع- حالات قتل، وخصوصًا من المُسنّين.

عيلبـون- ١,٠٠٠ نسـمة. قبـل الجيـش بالاستسـلام. ذبـح، طعـام، بـدأ الطـرد مـن القريـة بإطـلاق الرصـاص. قُتـل ٣٠ شـخصًا. أمـر بطـرد القريـة. انتـشرت الشـائعات مـا وراء الحـدود.

الصالحـة- ٩٢ مُسـنًّا وطفـلًا وامـرأة فُجّـر البيـت فـوق رؤوسـهم {...}

رأت المؤرّخـة تمـار نوڤِـك هـذا المُسـتند قبـل عـدّة سـنوات وأخبرتنـي عنـه. ليـس للمسـتند عنـوان ولا يـرد فيـه اسـم كاتبـه، لكـن بالإمـكان تبـيُّن مصـادره. فقـد كُتـب بآلـة طابعـة، عـلى يـد ڤشـيتس كمـا يبـدو. ثمّـة

تُخرِس الذاكرة اليهوديّة العنفَ الذي رافق حرب ١٩٤٨. وفي حين أنّ الكتابة التاريخيّة عن الحرب تطرّقت إلى الفظائع التي حصلت، فإنّها لم ترَ في العنف عنصرًا بُنيويًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب العبريّة والهدف الذي وضعته نصب عينيْها بتقليص عدد الفلسطينيّين في الدولة بشكل كبير عبر وسيلة الطرد.

مستند مشابه موجود أيضًا بخط يد أهرون كوهن، وهو أيضًا على غرار قشيتس ينتمي إلى حركة «هشومير هتسعير» اليساريّة والكيبوتس القُطري. كان كلاهما مُقرّبيْن من الفلسطينيّين (وكلاهما كانا في سنة ١٩٤٨ عضويْن في مَپام، الحزب الذي تألّف في كانون الثاني ١٩٤٨ من الوحدة بين هَكيبوتس هَميئوحاد وأحدوت هَعڤودا وهَشومير هَتسعير). والحديث هنا عن تلخيص جلسة انعقدت في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٨، حين قدّم فيها چليلي تقريرًا بخصوص الجرائم التي أُقترفت.

تُخرِس الذاكرة اليهوديّة العنفَ الذي رافق حرب ١٩٤٨. وفي حين أنّ الكتابة التاريخيّة عن الحرب تطرّقت إلى الفظائع التي حصلت، فإنّها لم ترَ في العنف عنصرًا بُنيويًّا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب العبريّة والهدف الذي وضعته نصب عينيْها بتقليص عدد الفلسطينيّين في الدولة بشكل كبير عبر وسيلة الطرد. إلّا أنّ الطرد والعنف مرتبطان ببعضهما البعض كما يتّضح من الأدبيّات البحثيّة الواسعة حول حالات مُشابهة في التاريخ الحديث. وبغية طرد الضحيّة يجب تحويلها إلى كائن غير إنسانيّ وذلك عبر إذلالها وعبر مُمارسة العنف ضدّ النساء والمُسنّين والأطفال، الذين صاروا منذ اللحظة «أعداء». لا يوجد طرد «خفيف» خالٍ من العنف والقسوة؛ ليس من الممكن اقتلاع نحو ٧٥٠,٠٠٠ شخص من بيوتهم بالرفق وبالوسائل السّلميّة.

الفصل السّادس عشر: سرد قصص ١٩٤٨

من الممكن عبر كلمات معدودة أن نروي قصّة أولئك الذين عاشوا في البلد من زمن بعيد، وأولئك الذي أتوْا إليه حديثًا. لقد كان سكّان الطنطورة يعيشون حيواتهم مثل سائر الناس، بأفراحها وأحزانها، بقصص الحبّ والخصومات، بالولادة والموت، بالأخوّة والنزاعات والتحديات التي فرضها عليهم توالي الأيّام. كانت الحياة تسير كالمعهود، ثم أُحتلّتْ القرية في ٢٣ أيّار ١٩٤٨ بعد معركة مع مقاتلين يهود، وُلد بعضهم في فلسطين إبّان العقود السّابقة، وبعضهم جاء إلى البلد حديثًا من بلدان بعيدة. الحرب التي اندلعت بعد قرار الأمم المتحدّة بتبنّي قرار التقسيم يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ لم تكن من النوع الذي يحتلّ فيه أحد الأطراف أراضيَ الطرف الآخر، وبهذا ينتهي الموضوع. كانت الطنطورة تقع في ضمن الدولة اليهوديّة كما تقرّر في خطّة التقسيم، بحيث كان من المفترض بسُكّانها أن يكونوا مواطنين في الدولة. إلّا أنّ اليهود رأوْا في حرب «الاستقلال» طريقة لإحداث تغيير ديموچرافيّ، إذ إنّ قرار التقسيم نصّ كما تقدّم على أن يعيش في الدولة اليهوديّة الجديدة نحو ٥٠٠,٠٠٠ فلسطينيّ إلى جانب نحو ٦٥٠,٠٠٠ يهوديّ، فيما كانت الغالبية السّاحقة من اليهود تحلم بدولة مع أغلبيّة يهوديّة واضحة. وهكذا رأى اليهود في هذه الحرب أكثرَ من كونها حربًا ضدّ المقاتلين الفلسطينيّين والعرب، بل كانت حربًا ضدّ السُّكّان المدنيّين الفلسطينيّين أيضًا. وهكذا دمّر اليهودُ الطنطورة وبضمن ذلك سكّانها الـ ١,٦٠٠ بوساطة أربعة أفعال مُكمِّلة: في صبيحة اليوم التالي للمعركة قُتل وفق الشهادات بضع عشرات من رجال القرية؛ وفي اليوم نفسه نُقل من تبقوْا من الرجال إلى معسكر اعتقال بالقرب من نتانيا، فيما طُرد المُسنّون والنساء والأطفال إلى الفريديس، ومن هناك إلى طولكرم الخاضعة للسيادة الأردنيّة يوم ١٨ حزيران؛ وفي اليوم نفسه وخلال الأيام التالية نُهبت كلّ أملاك الطنطوريّين؛ وفي يوم ١٣ حزيران استوطنت القريةَ نواةٌ يهوديّة أقامت

بين بيوتها وعلى أراضيها كيبوتس نحشوليم. هكذا أُستُكمل تدمير الطنطورة الفلسطينيّة.

نحن نتبيّن خمس نقاط عامّة حول حرب ١٩٤٨ من خلال قصّة الطنطورة. الأولى، أنّ تدمير الطنطورة لم يكن حدثًا مُتفرّدًا بل كان جزءًا من حرب استقلال اليهود في أرض إسرائيل عبر اقتلاع الفلسطينيّين واستبدالهم. هكذا ينضمّ هذا الكتاب إلى أبحاث تتحدّى التأريخات الصهيونيّة المعياريّة التي تفترض وجود مجالي اهتمام منفصلَيْن: الأوّل هو الحرب من أجل الاستقلال، والثاني هو النكبة- هذا إذا نوقشت أصلًا. لا يمكن الدفاع عن هذا الموقف لأنّ الصهيونيّة ترى أنّ تجريد الفلسطينيّين من حقوقهم القوميّة وطرد غالبيتهم بغية خلق أغلبيّة يهوديّة متينة، يُشكّلان معًا شرطًا ضروريًّا لإقامة دولة يهوديّة ديمقراطيّة. يكمن في صلب الأدبيّات البحثيّة حول حرب ١٩٤٨ حادثُ عنف جماعيّ؛ ففي نهاية المطاف، هل من المُمكن لمحو اليهود للحضارة الفلسطينيّة في ١٩٤٨ ألّا يكون في مركز التاريخ الإسرائيليّ؟ نحن لسنا بحاجة لمدارك تأريخيّة خاصّة كي نفهم أنّ هذيْن المجالَيْن مرتبطان ببعضهما البعض ارتباطًا لا فكاكَ منه. ولا يهمّنا ما إذا كان الفلسطينيّون قد طُردوا بالقوّة، مثلما حدث في الطنطورة، أم أنّهم فرّوا خوفًا من القوّات اليهوديّة. فهاتان الظاهرتان غير متناقضتَيْن: الفلسطينيّون فرّوا خلال الحرب كي ينجوا بحياتهم، تمامًا مثل المدنيّين غير المقاتلين في الحروب الأخرى. كان هذا فعلًا مفاده الرغبة في البقاء خوفًا من القوّات اليهوديّة التي مارست أنماطًا مسلكيّة تجلّت في قتل المدنيّين وتفجير البيوت والنهب. الفلسطينيّون الذين طُردوا أو هربوا مُنعوا من العودة إلى بيوتهم. هذا التحقيق التاريخيّ يجب أن يتمّ من دون أعذار. من واجبنا أن نروي القصّة، القصّة كلّها، رغم الصعوبة الكبيرة الكامنة في ذلك.

تتمثّل النقطة الثانية في حرب اليهود ضدّ السكّان المدنيّين الفلسطينيّين غير المُسلّحين، وهي الحرب الكامنة في صُلب حرب ١٩٤٨، إلى جانب المعارك التي دارت مع القوّات المُحاربة. لم يكن لهذه الحرب أيّ تبرير، وليس بالإمكان تبريرها قط. علينا أن نسأل: هل ثمّة عوامل أو سلسلة أحداث تجعلنا نُبرّر ما حدث عبر مقولة «نعم، المجزرة في الطنطورة، خراب الطنطورة وخراب الحضارة الفلسطينيّة سنة ١٩٤٨ كانت كلّها فظيعة، لكن في نهاية الأمر...» أو أنّ «هذه الأمور مؤسفة حقًّا، مع أنّ...» الفلسطينيّين هم الذين تسبّبوا بهذا لأنّهم رفضوا خطّة التقسيم أو لأنّهم بدأوا الحرب أو ارتكبوا المجازر ضدّ اليهود هم أيضًا؟ برأيي لا يوجد عامل أو سلسلة أحداث بوسعها أن تُبرّر ما حدث. وحتّى لو كان الفلسطينيّون هم الذين بدأوا الحرب أو رفضوا قرار التقسيم -كما أسلفنا ثمّة خلاف بين المؤرّخين بخصوص هذه الادّعاءات، وهي ادّعاءات مُركّبة أكثر ممّا يبدو ظاهريًّا- وحتّى لو أنّهم ارتكبوا المجازر ضدّ اليهود في بعض الحالات، وكانت حالات كهذه، فليس هناك أيّ تبرير لخراب المجتمع الفلسطينيّ المحليّ في الطنطورة، ولخراب الحضارة الفلسطينيّة في فلسطين على نطاق أوسع. ومهما كانت آراء الجميع حول الصهيونيّة وحقّ تقرير المصير اليهوديّ في أرض إسرائيل وتشكّلاته المختلفة، فإنّ لا شيء يُبرّر ما حدث: تدمير مجتمع كامل من أجل إقامة دولة. هذا الأمر ليس موجودًا ضمن الإمكانيّات الأخلاقيّة الشّرعيّة المُتاحة أمام بني البشر.

ترتبط النقطة الثالثة بالتأويل التاريخيّ للنكبة. فطرد الفلسطينيّين في حرب ١٩٤٨ كان شكلًا من أشكال العنف المُوجَّه والمُتكرّر، والمَنوط بفعل سياسيّ صادر عن جهات عُليا، وبمشاركة نشطة وفاعلة من الجنود والمدنيّين اليهود. المُصطلح الأكثر قبولًا اليوم في أوساط الباحثين لوصف عمليّات الطرد العنيفة لغرض تأسيس دولة قوميّة متجانسة هو «التطهير العرقيّ». فلننظر إلى تعريف نورمان نييمارك الذي طرحه، وهو المؤرّخ الأهمّ في القرن العشرين للتطهيرات العرقيّة: «المقصد من التطهير العرقيّ هو نقل الناس، وفي الغالب أيّ ذكر لهم، من منطقة جغرافيّة معيّنة. بكلمات أخرى، التخلّص من المجموعة «الأخرى»، سواءً أكانت قوميّة أم إثنيّة أم دينيّة، والاستيلاء على الأرض التي عاشت عليها في السّابق». هذا مصطلح دقيق لوصف طرد اليهود للفلسطينيّين في ١٩٤٨، والكثير من مؤرّخي هذه الفترة يتبنّون هذا التأويل. لقد كان اقتلاع الفلسطينيّين في ١٩٤٨ أكبرَ هجرة قسريّة في تاريخ البلد.

تتميّز الحالة التاريخيّة الخاصّة بسنة ١٩٤٨

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

طرد الفلسطينيّين في حرب ١٩٤٨ كان شكلًا من أشكال العنف المُوجَّه والمُتكرّر، والمَنوط بفعل سياسيّ صادر عن جهات عُليا، وبمشاركة نشطة وفاعلة من الجنود والمدنيّين اليهود. المُصطلح الأكثر قبولًا اليوم في أوساط الباحثين لوصف عمليّات الطرد العنيفة لغرض تأسيس دولة قوميّة متجانسة هو "التطهير العرقيّ".

بصفات أساسيّة معدودة من التطهيرات العرقيّة في العالم الحديث. ففي مسارات التطهير العرقيّ تتضافر وتشتبك سلطة الدّولة (أو سلطة الكيان السياسيّ) الضروريّة لنقل البشر من مكان إلى آخر، مع أفعال الناس في الميدان. هذه الصفات تتشابه مع ما حدث في ١٩٤٨. الدول وحدها غير قادرة على اقتلاع مئات آلاف الأشخاص من بيوتهم. ليس بمقدور أيّ أمر حكوميّ واحد أن ينفّذ هجرة قسريّة بوساطة أمرٍ أيًّا كان. هناك دائمًا شبكة من الرموز والأمزجة والذكريات الضالعة في ذلك، تسمح للإنسان بالنظر إلى الهجرة القسريّة بينه وبين نفسه على أنّها أمر مقبول وأخلاقيّ ظاهريًّا. وفي نهاية المطاف يقف من وراء هذه الأفعال أشخاص كان الكثير منهم في السّابق جيرانًا؛ نحن نتحدّث عن أحداث عامّة وجماهيريّة دائمًا لأنّه من غير المُمكن إخفاء النقل العنيف للكثير من السُّكان، وهذه الأفعال تحظى بتغطية إعلاميّة في الأغلب. تبرز العناصر الرّائجة الخاصّة بالتطهير العرقيّ بشدّة في سياق مُمتلكات الضحايا: فالمُمتلكات تُنهَب وتُصادر، سواءً أكان الحديث عن سجّادة أو خزانة أو مصباح أو بيوت وأراضٍ. بعد هجرة قسريّة تُفرض على أقليّة معيّنة -عبر هرب السكّان الفزعين، أو الممارسات العنيفة للجيش أو كلا الأمريْن معًا- من النادر أن تسمح الدّولة للمطرودين بالعودة. وفي غالب المرّات يتحوّل الطّرد إلى وضعيّة ثابتة.

لا تكون التطهيرات العرقيّة قصصَ أخلاق حسنة التدبير ومحسومة دائمًا: صحيح، هناك ضحايا وهناك جُناة، لكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المُصادقة والسّياق التاريخيّيْن، يمكننا أن نجد ضحايا كانوا جُناةً- وبالعكس. ويحدث أيضًا أن تجتمع الضحيّة والجاني في شخصيّة واحدة. الألمان الذين طُردوا من أوروبا الشرقيّة نهاية الحرب العالميّة الثانية، وأولئك الذين طُردوا من بولندا وتشيكوسلوفاكيا بين السّنوات ١٩٤٥-١٩٤٧ كانوا داعمين لهتلر ومستفيدين من إمبراطوريّة الإرهاب التي شيّدها. في الهند والباكستان رأينا عام ١٩٤٧ أنّ الهندوس والمسلمين كانوا بمثابة جُناة وضحايا في الوقت نفسه. في سنة ١٩٤٨ لعب ضحايا سابقون للهولوكوست دورَ الجُناة في بعض الأحيان، والأمر نفسه بخصوص مطرودين فلسطينيّين. كان التطهير العرقيّ -الذي يُسمّى أحيانًا نقل السُّكان- مبلورًا في التاريخ الأوروبيّ الذي حوّله إلى أمر مقبول منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، مُبرّرا الفكرة والتطبيق بالأفضليّة التي تحظى بها الدول المتجانسة عرقيًّا. لقد وفّرت حالات نقل السُّكّان السّابقة في أرجاء أوروبا سياقًا تاريخيًّا للنموذج الصهيونيّ في فلسطين، إلّا أنّه لا يُمكن لهذا السّياق تبرير طرد الفلسطينيّين في ١٩٤٨، وليس بوسعه أن يكون حجّةً للتنكّر لمسؤوليّة الحركة الصهيونيّة عن ذلك. وحقيقة أنّ هذا الفعل غير الإنسانيّ أصبح مقبولًا لا تجعل منه أمرًا عادلًا أو مُبرّرًا. لقد تأسّست دولة إسرائيل كدمج لفكرة قوميّة جديدة في العالم اليهوديّ بخصوص دولة سياديّة حديثة في أرض إسرائيل، مع مُمارسات تطهير عرقيّ بغية تأسيسها.

المؤرّخون الذين لا يقبلون تأويلات التطهير العرقيّ للفلسطينيّين في ١٩٤٨ طرحوا، من ضمن ما طرحوه، ادّعاءيْن اثنيْن: عدم وجود خطّة رئيسة لطرد الفلسطينيّين في ١٩٤٨، وأنّهم لم يُطردوا جميعهم، وبالتالي لم يَجرِ تطهير عرقيّ. هذان الادّعاءان صحيحان من الناحية الحقائقيّة، لكنّها غير كافيَيْن لدحض وجود مثل هذا التطهير. ليس من المطلوب

وجود خطة رئيسة مركزيّة أو إعلان مكتوب لسياسة الطرد من طرف الحكومة أو قيادة الأركان. ففي غالبيّة الحالات التاريخيّة لا نجد مثل هذه الوثيقة. هذا ما حصل في حالات الطرد الجماعيّة، مثل شبه القارّة الهنديّة سنة ١٩٤٧، أو في حالات الإبادة الجماعيّة (الجينوسايد) في رواندا وكمبوديا والمحرقة اليهوديّة. ما يهمّنا هنا هو التشابه الثقافيّ والسّياسيّ المشترك بخصوص الحاجة والتبرير لطرد أو تدمير مَن يُعتبَرون أعداء لمُجرّد كونهم مختلفين، بمَن فيهم من النساء والمُسنّين والأطفال. صحيح، لم يُطرَد جميع الفلسطينيّين من داخل حدود دولة إسرائيل بعد أيّار ١٩٤٨، إلّا أنّ التطهيرات العرقيّة لا تسعى دائمًا للكمال الديموچرافيّ، بل للحسم الديموچرافيّ. في خريف ١٩٤٨ طُردت غالبيّة الفلسطينيّين الذين كانوا يعيشون في مناطق الدّولة؛ المجتمع الفلسطينيّ تحطّم بعد سقوط يافا وحيفا وأحياء غربيّ القدس ومدن فلسطينيّة أخرى. لقد تغيّر سياق الحرب، والفلسطينيّون الذين ظلّوا في الجليل ورأوْا مصير أخوتهم الذين طُردوا من دون رجعة، تمسّكوا ببيوتهم وأراضيهم.

يتّسم طرد سكّان الطنطورة ببُعد قانونيّ أيضًا. فقد سألتُ هانيو بن-موشيه الذي التقط صور نساء الطنطورة وأفراد عائلاتهنّ قبل طردهم إلى الفريديس (الصور ١٤-١٦). «نحن التقطنا الصور»، ردّ عليّ. لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة. فالصّور تصف لحظة سبقت تنفيذ جريمة حرب، لأنّ الإزاحة القسريّة لسُكّان مدنيّين أعداء أثناء الحرب هي جريمة ضدّ الإنسانيّة، وفق كلّ المواثيق والمعاهدات الدّوليّة. الجريمة ضدّ الإنسانيّة مشمولة في فئة الجرائم الجسيمة بشكل خاصّ. فاتفاقيّة روما الصادرة عام ١٩٩٨، التي تُشكّل دستورَ المحكمة الجنائيّة الدّوليّة، تنصّ على أنّ الطرد (النقل القسريّ إلى خارج الحدود الدّوليّة وخارج الدّولة) والنقل القسريّ (حادثة اقتلاع ونقل ضمن حدود الدولة) هُما جريمة ضدّ الإنسانيّة. وقد أُعتبر الطرد جريمة ضدّ الإنسانيّة منذ دستور المحكمة العسكريّة الدوليّة لمحاكمة النازيّين في نورنبرغ في آب ١٩٤٥. وحتّى قبل ذلك، بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، جرى تعريف الطّرد (و/أو النقل القسريّ) كجريمة في التقرير الصّادر عن اللجنة الدّوليّة لتحديد مسؤوليّة قياديّي الحرب وتطبيق العقوبات، والذي قدّمته إلى لجنة السّلام الدّوليّة التي التأمت في ڤرساي عام ١٩١٩. في ١٩٥٠ تبنّت الجَمعيّة العامّة للأمم المتّحدة قرارًا يُبلور مبادئ نورنبرغ، إلى جانب تبنّي تعريف الطّرد كجريمة حرب وكجريمة ضدّ الإنسانيّة.

النقطة الرّابعة التي يجب أخذها بعين الاعتبار متعلّقة بذاكرة دمار الطنطورة، أي ١٩٤٨، أو لنقلّ بشكل أدقّ تغييب هذه الذاكرة. فما يتّضح من قضيّة كاتس هو الإنكار العميق -الواعي وغير الواعي- في المجتمع اليهوديّ للكارثة التي أنزلتها الصهيونيّة بعرب البلد. فتغييب ذاكرة الدمار الذي حصل سنة ١٩٤٨ بالغ العُمق لدرجة أنّه لا يُنظر إليه كذلك البتّة؛ إنّه واضح ضمنًا لليهود وهو ليس بحاجة للتفسير. قصّة الطنطورة و١٩٤٨ الخاصّة بالمقاتلين وبالمجتمع اليهوديّ من وقتها، تتطابق مع تلك القصص القوميّة التي لا تهدف لطرح الحقائق الصّحيحة، بل تلك غير الصّحيحة في محاولة لتوضيح التاريخ وتبرير القوى المُحرِّكة من وراء ارتكاب الأفعال الحسنة، وخصوصًا الأفعال السّيّئة. وعلى غرار كلّ القصص القوميّة، نجد أنّ هذه القصة أيضًا تختار الحقائق بانتقائيّة، وتُراوح بين الماضي والحاضر، وتتّبع الأخطاء التاريخيّة، ولا تلتزم بتسلسل الأزمان وانتظامها. تأليف القصص يجعل منّا إنسانيّين، لكن ليست كلّ قصصنا إنسانيّة. ثمّة قصص ذاكرة مختلفة عن الطنطورة و١٩٤٨ لكنّها ليست سجلًّا تتشابه فيه القصص كلّها، ومن غير المُمكن معرفة ما حدث فعلًا. الفرق بين سريان القصص المختلفة هو في الأساس أنّ القصّة التي رويتُها في هذه الصفحات تستند إلى بحث حينيّ وإلى مصادر تاريخيّة كثيرة. من هنا يتّضح فارق إضافيّ يُلغي قصّة السجلّ: في قصّتنا عن الطنطورة ثمّة ضحايا وجُناة، وفي قصّة ١٩٤٨ ثمّة أيضًا من فازوا ببيت ووطن، وثمّة مَن سُلبت منهم بيوتهم ووطنهم.

النقطة الخامسة التي يعرضها الكتاب كموضوع للنقاش هي كالتالي: كيف يجدر بنا تذكّر النكبة وتأسيس الدّولة، اليوم ومُستقبلًا، في المجتمع الإسرائيليّ مع اليهود والفلسطينيّين الذين يعيشون ضمنه؟ هذه مسألة مُركّبة وحسّاسة تستوجب نقاشًا صريحًا ومتكافئًا. أنا لا أنوي البتّ في المسألة بشكل

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

"العيش في صميم الكذب" هو أيضًا نِتاج للطريقة العينيّة التي أدار بها اليهود حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨. كان من المُمكن اختيار طريق أخرى، والفوز بالحرب من دون طرد الفلسطينيّين. الطريق التي اختيرت أدّت إلى نشوء مجتمع تُشكّل الشراكة في الجريمة عنصرًا مركزيًا في مُعاشِه: الاقتلاع والنهب واستبدال سكّان البلد الفلسطينيّين.

نهائـيّ، بـل عـرض تعقيـدات المسـألة، وبعـض طـرق التذكّـر المُمكنـة للمـضيّ قدمًـا في المسـتقبل القريـب. تذكُّـر الدمـار الـذي أحدثـه اليهـود في الحـرب لا يعنـي إلغـاء إقامـة الدولـة وإنشـاء مجتمـع وثقافـة عبريّـيْن زاخريْـن منـذ ١٩٤٨. للصهيونيّـة دلالات كثـيرة لـدى اليهـود المختلفـين. فبالنسـبة للكثيريـن منهـم، وأنـا مـن بينهـم، كانـت الصهيونيّـة تحمـل قيمـة إيجابيّـة. أمّـا بنظـر الفلسـطينيّين فالصهيونيّـة كانـت تعنـي أولًا وأخـيرًا الاقتـلاع واسـتبدالهم باليهـود.

أحـد الـشروط اللّازمـة لإجـراء نقـاش ذي معنًـى حول ذاكـرة ١٩٤٨ -أي مناقشـة مـاضي وحـاضر ومسـتقبل سـكّان البلـد- هـو المسـاواة بـين المجموعتـيْن، إلّا أنّ هـذه المسـاواة غـير موجـودة. ليسـت هنـاك مسـاواة حقـوق سياسـيّة وقوميّـة ومدنيّـة كاملـة لـكلّ سـكّان البلـد بـين نهـر الأردن والبحـر المتوسّـط، بـل منظومـة حكـم مبنيّـة عـلى الفوقيّـة اليهوديّـة وفـق تدرّجـات مختلفـة. هـل مـن المُمكـن أصـلًا في ضمـن هـذه الوضعيّـة التاريخيّـة، إنتـاج ذاكـرة مُشـتركة للنكبـة ولتأسـيس دولـة إسرائيـل، بمقدورهـا احتـواء الجماعتـيْن مـن دون إلغـاء إحداهمـا؟ أم أنّ الذاكـرة التـي تُبنـى بجهـد مشـترك مـن اليهـود والفلسـطينيّين، حتّـى لـو كانـوا أقليّـة، هـي بالـذات التـي سـتؤدّي إلى إحـداث ثغـرة لخيـال تاريخـيّ وإنسـانيّ آخـر، يمكـن أن يكـون ضمـن شروط تاريخيّـة مُعيّنـة جـزءًا مـن تغيـير سـياسيّ أوسـع يحمـل في طيّاتـه المسـاواة للجميـع؟ ذاكـرة كهـذه سـتكون هشّـة ومـتردّدة وماثلـة للتحديـات التـي تفرضهـا الملابسـات والظـروف التاريخيّـة.

ثمّـة عامـلان آنيّـان مرتبطـان ببعضهمـا البعـض يؤثّـران عـلى النقـاش. الأوّل، أنّ النكبـة التـي وقعـت في ١٩٤٨ لـم تنتـهِ وذلـك عـلى خـلاف حـالات أخـرى مـن العنـف الجماعـيّ في التاريـخ المُعـاصر، والتـي كانـت محصـورة زمنيًّـا ضمـن الفـترة العينيّـة التـي حدثـت فيهـا. لا ينحـصر مـا نقولـه هنـا فقـط في مفهـوم أنّ صدمـة الطـرد والسّـلب انتقلـت إلى الجيلـيْن الثانـي والثالـث، كمـا نعـرف مـن أحـداث العنـف الجماعـيّ الأخـرى؛ بـل بمفهـوم أنّ دولـة إسرائيـل مـا تـزال تمـارس سياسـة السّـلب ونفـي حقـوق الفلسـطينيّين حتّـى بعـد ١٩٤٨ وبعـد ١٩٦٧. بهـذا المعنـى مـا تـزال النكبـة حدثًـا مُسـتمرًّا أساسـه منظومـة حُكـم قائمـة على الفوقيّـة اليهوديّـة التـي تمنح مواطنيهـا اليهـود امتيازات عـلى أسـاس نهـب الفلسـطينيّين المتواصـل. بالنسـبة لسـكّان الطنطـورة، فـإنّ «النكبة المسـتمرّة» كما يُسـمّيها الباحثـون تعنـي أنّهـم مـا يزالـون مبعثَريـن في المنـافي المختلفـة بـين الفريديـس وطولكـرم والأردن وسـورية ولبنـان والسـويد وألمانيـا وأماكـن أخـرى.

أمّـا العامـل الثانـي فيتجسّـد في التنكّـر دولـة إسرائيـل وغالبيّـة المجتمـع اليهـوديّ العنيـد لمطلـب الفلسـطينيّين العـادل والأسـاسيّ بالمسـاواة في الحقـوق الشـخصيّة والقانونيّـة والمدنيّـة والقوميّـة. وكمـا أسـلفنا فـإنّ هـذا الإنـكار واضـح ضمنًـا ليهـود الدّولـة مثـل وضـوح الهـواء الـذي يتنفّسـونه، وهـو يُكـرّس الرّاحـة وأيديولوجيّـة الفوقيّـة اليهوديّـة. هـذا لا يعنـي أنّ اليهـود لا يعـون أفعـال الـشرّ اليوميّـة التـي تهـدف لمنع المسـاواة في الحقـوق: فالإنـكار في جوهـره وضعيّـة ناشـطة وفعّالـة يقـوم المُنكِـر فيهـا بتخصيـص طاقـات ثقافيّـة ومجتمعيّـة هائلـة كـي لا يعـرف مـا هـو معـروف، ومـن أجـل تبريـر غـير المُـبرَّر، والشـعور بالضحويّـة فيمـا أنـتَ الجانـي. يُمكننـا «العـودة إلى روتيننـا اليومـيّ» كتبـت أيقـا إيلـوز عـن إنـكار الاحتـلال لـدى اليهـود، «لأنّ إسرائيـل قائمـة اليـوم عـلى كذبـة هائلـة جـدًّا. وكمـا قـال ڤاتسـلاڤ هاڤيـل، لقـد اعتدنـا عـلى ‹العيـش في صميـم الكـذب›».

«العيش في صميم الكذب» هو أيضًا نِتاج للطريقة العينيّة التي أدار بها اليهود حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨. كان من المُمكن اختيار طريق أخرى، والفوز بالحرب من دون طرد الفلسطينيّين. الطريق التي اختيرتْ أدّت إلى نشوء مجتمع تُشكّل الشراكة في الجريمة عنصرًا مركزيًّا في مُعاشِه: الاقتلاع والنهب واستبدال سكّان البلد الفلسطينيّين. لقد كانت الغالبيّة السّاحقة من سكّان البلد اليهود شركاء في هذه الجريمة، سواءً أعبر المشاركة الفعّالة، أم بالصّمت، أم بالاستفادة من ثمارها؛ سواءً أعَبْر دور الجاني، أم المُشرف، أم المُساعد، أم عبر ذلك الذي فضّل السكوت. لقد تواصل الاقتلاع والنهب والاستبدال أشهرًا طويلة وعلى طول الحرب (وبعدها)؛ نحن لا نتحدّث هنا عن تصرّفات قصيرة ومفاجئة لم يعرف الناس كيفيّة التصرّف معها، بل بالعكس: لقد تغذّت هذه التصرّفات من الطرفيْن، من رأس الهرم ومن قاعدته: تصريح وتشجيع من القيادة إلى جانب الدعم الشعبيّ الواسع. لقد وحّدت هذه الجريمة ولا تزال تُوحّد المجتمع اليهوديّ، وهذا أحد أسباب الصعوبة الكبيرة في الاعتراف بها. أمّا بما يخصّ قصّتنا، فإنّ ما يقف في مركز الدلالة التاريخيّة لخراب الطنطورة ليس المجزرة نفسها، بل طرد السكّان وتدمير القرية بكونهما جرائم حرب.

لا يستند تأسيس الدولة ووثيقة الاستقلال إلى مبدأ أمميّ بالحريّة والمساواة، بل إلى مبدأ إثنو-قوميّ بالحريّة والمساواة لليهود. لقد ضمنت وثيقة الاستقلال الحقوق لمُجمل السُّكّان، لكن في إطار سياسيّ مرتبط بهُويّة إثنو-دينيّة-قوميّة، ومثل هذا الوعد بالحقوق غير قابل للتحقيق، حتّى لو أُعطي عن نيّة صافية. إنّ تذكّر النكبة والوجود اليهوديّ القوميّ في أرض إسرائيل في سلّة واحدة معناه تحدّي الفوقيّة اليهوديّة، والتحدّث بمصطلحات قيم المساواة والحريّة الكونيّة، لكلّ سكّان البلد، مساواة قوميّة وشخصيّة ومدنيّة وقانونيّة. مثل هذه المساواة لا تفترض حلًّا سياسيًا مُعيّنًا (دولة واحدة مشتركة على سبيل المثال)، بل هي رؤيا تستند إلى العدالة والتبادليّة والمسؤوليّة التاريخيّة، وإلى حقوق شخصيّة وقوميّة متساوية لكلّ السُّكان، من البحر وحتّى نهر الأردن. مثل هذه المساواة لا تنفي الوجود القوميّ السياسيّ اليهوديّ في أرض إسرائيل، بل تنفي الوجود السياسيّ للفوقيّة اليهوديّة والتمييز أو استملاك الفلسطينيّين، وتنفي ذاكرة الاستقلال القوميّ اليهوديّ في ١٩٤٨ وتغييب الدمار الفلسطينيّ الذي ألحقه هذا الاستقلال.

يُمكن للذاكرة اليهوديّة-الإسرائيليّة الخاصّة بـ ١٩٤٨ أن تكون ذات معنًى، لو أنّها اعترفت بأنّ تأسيس الدولة الذي سيبقى قيمة تاريخيّة وشخصيّة هائلة لليهود، كان مَنوطًا بمحو الحياة الفلسطينيّة المتواصلة والطبيعيّة، وذلك عبر فعل عنيف هائل وشاسع النطاق. إنّ وجود ذاكرة يهوديّة ذات معنى وقيمه للنكبة يعني التذويت العميق لوضعيّة سُكّان لاجئين في وطنهم وخارجه، أُقتلعوا أو أنّهم مُهدّدون بالاقتلاع، جرّاء تأسيس دولة إسرائيل. لقد أدّت ١٩٤٨ وما تلاها إلى هندسة مجتمع وديموجرافيا وثقافة وطبيعة البلد وفق أيديولوجيا صهيونيّة، وهي هندسة لم تكن مُمكنة التحقيق إلّا بالعنف.

إنّ معرفة ما حدث في الماضي تُشكّل الخطوة الأولى فقط من مسار الاعتراف الذاتيّ. اليهود في دولة إسرائيل اليوم يتحمّلون مسؤوليّة النكبة. لكنّ المسؤوليّة لا تعني الذنب. اليهود في إسرائيل، على غرار كلّ مجموعة، يبنون هُويّتهم وهم يحكون لأنفسهم قصّة مشتركة حول مَن يكونون ومن أين جاءوا وإلى أين هم ذاهبون. هذه القصّة تمنح المعنى والدلالات لحياة المجموعة على مرّ الزمن وفي فضاءات التاريخ. لذا، نحن لا نتحدّث عن مسؤوليّة شخصيّة عن النكبة، بل عن مسؤوليّة جماعيّة (الأمر الذي يختلف في الزمن الحاضر بخصوص المسؤوليّة الشخصيّة للإسرائيليّين اليهود عن سلب حقوق الفلسطينيّين). ومثلما يقومون اليوم باحتضان الفوز بالإيروڤزيون وجوائز نوبل وإبراهيم وإسحق ويعقوب كما لو أنّهم لنا (رغم أنّهم لم يُغنّوا في الإيروڤزيون ولم يفوزوا بجائزة نوبل ولم يقضوا أوقاتهم مع الآباء الثلاثة)، كذا عليهم أن يتبنّوْا الأجزاء المظلمة من الماضي. القصّة الشخصيّة أو القوميّة ليست برنامج «ما يطلبه الجمهور»، نختار فيها الماضي الإيجابيّ فقط؛ فالإيجابيّ والسّلبيّ معًا هما اللذان يجعلاننا على ما نحن عليه، ومن كُنّا ومن سنكون. التاريخ الأكبر قيمةً، سواءً أكان شخصيًّا أم جماعيًّا، هو الذي يساعدنا على رؤية قصّتنا، مهما كان جوهرنا، بكلّ جوانبه، بما يشمل الإنجازات ومعها الأخطاء، والتي

شاطئ الطنطورة: قصة خراب قرية فلسطينية، 1948

تنير الجوانب المظلمة من الماضي بغية الحذر منها مستقبلًا.

ذاكرة الماضي تحدٍّ، الذاكرة والنسيان يختلطان، لذا فإنّهما ليسا متناقضيْن، بل مُكمّلان لبعضهما البعض. يتجّلى هذا في فيلم «الطنطورة». فمن جهة، نرى أنّ الفيلم بالغ الأهميّة لأنّه أثار نقاشًا يقظًا في المجتمع الإسرائيليّ حول الطنطورة والنكبة والذاكرة وتغييبها كلّها. ومن الجهة الثانية أدّى الفيلم -من حيث لا يدري ربما- إلى ترسيم حدود وقيود الذاكرة اليهوديّة حول ١٩٤٨. وعلى الرغم من أنّ الفيلم يسعى للكشف عن حقيقة حول ما حدث في الطنطورة، فإنّه لا يحوي مطلبًا حازمًا بتحمّل المسؤوليّة (accountability) من طرف المقاتلين (ظلّ مُرتكبو الجريمة مجهولي الهُوية (باستثناء بيربليت) والمجتمع اليهوديّ، التي تتطلّب نقاشًا في السؤال حول كيفيّة إصلاح أفعال الماضي بالضبط. وقد تمثّلت هذه المسألة في شعار الفيلم الذي بدأ بأقوال يجآل ألون حول أهميّة معرفة الماضي. ألون ليس المتحدّث الملائم في فيلم يكشف الحقيقة عن الطنطورة، بما يشمل ثقافة إنكار وإخفاء الجرائم التي أُرتكبَتْ في ١٩٤٨، وعمّا حدث في النكبة على نطاق أوسع. وبصفته قائد البلماح كان ألون أوّل الذين طردوا فلسطينيّين سنة ١٩٤٨. وتذكر كاتبة سيرته المُحبّة له، أنيتا شَبيرا، أنّه دعم العقاب الجماعيّ ضدّ السُّكّان المدنيّين، ولم يتردّد في دعم عمليّات الطرد.

التذكُّر وتحمُّل المسؤوليّة يعنيان الموافقة على التغيُّر، والتنازل عن عامل مركزيّ في الهُويّة بغية تبنّي رؤية أخرى يعترف فيها المرء بفعل ارتكبه في الماضي يستوجب التصحيح. مثل هذا التصحيح مَنوط بثمن ما، وبالتنازل عن شيء مهمّ، وإلّا فما معنى مثل هذا التصحيح؟ ثمّة تصحيحان يبدوان جوهريَيْن لدى الجانب الإسرائيليّ-اليهوديّ، إذا ما نظرنا إلى النتيجة النهائيّة المَرجُوَّة، وهما يشكّلان أيضًا قاعدة ما للنقاش نفسه: تقبّل الصوت والهُويّة الفلسطينيْن كأمريْن شرعيَيْن على غرار الصّوت والهُويّة اليهوديْن-الصهيونيّيْن، والتنازل عن منظومات الفوقيّة اليهوديّة الموجودة في مجتمعنا.

يُمكن لفعلُ التذكُّر هذا أن يبدأ في الطنطورة، ويجب على جُهد التخليد أن يحدث عبر الشراكة الكاملة والمتكافئة مع الطنطوريّين وذُرّيتهم. يجب أن نحفر في موقف السيّارات وأن نكشف عمّا يوجد تحته، وهذا أمر دعمه ويدعمه المقاتلون. ويجب تسييج منطقة المقبرة السّابقة كموقع تذكاريّ وتشييد نُصب فيه للّذين قُتلوا وإنشاء متحف لتاريخ القرية وتدميرها. يجب أن نتعامل مع الطنطورة كمثال لإقامة نُصب ومواقع تذكاريّة في قرى أخرى وقعت فيها جرائم قتل ضدّ الأبرياء، مثل عيلبون ومجد الكروم والبعنة ودير الأسد والصفصاف والجش وسعسع وغيرها. لتحقيق هذا الغرض من المحبذ التساعد بالأدوات التي توفرها إنثروبولوجيا الطبّ الشرعيّ، وهي مجال يدمج تقنيّات تطبيقيّة لأغراض قانونيّة، وخصوصًا تحديد هُويّات رُفات وبقايا ضحايا القتل، ومواقع القبور الجماعيّة في سياقات العنف السياسيّ. يجب علينا أن نتحدّى الخيال وأن نعترف بأنّ سُكّان الطنطورة طُردوا من دون ذنب اقترفوه؛ الشهادات التاريخيّة على ذلك قاطعة. من هنا يجب دفع تعويضات لذُريّة أبناء الطنطورة لقاء مُمتلكاتهم، ولكلّ الفلسطينيّين الذين صودرت أملاكهم بإشارة سريعة.

يجب على اليهود أن يبدأوا مجهودًا شخصيًّا وجماعيًّا لمواجهة الماضي، غير مكتفين بالأقوال بل بالأفعال أيضًا، على المستويات السياسيّة والدّستوريّة والماليّة، ومعها مستوى الذاكرة أيضًا. أيُّ تسويةٍ كانت، مهما كان إطارها السّياسيّ، ستكون مُجبَرة على الاعتراف بحقّ اللاجئين الشرعيّ بالعودة إلى بيوتهم أو إلى الحيّز الواقع بين النهر والبحر، سواءً أكانوا سيعودون أم لا، وذلك في إطار تبدّل الأزمان والتاريخ منذ ١٩٤٨، والأخذ بعين الاعتبار أنّ الكثيرين لن يرغبوا بالعودة ويجب تعويضهم هم أيضًا.

إذا كان مثل هذا التغيير سيطرأ على الذاكرة، فإنّه لن يأتي من الأعلى من عند السّياسيّين. تغيير الذاكرة الجماعيّة حول ١٩٤٨ سيأتي -هذا لو أتى أصلًا- من الأسفل، عبر تغيير الذاكرة الشّخصيّة. الحديث عن النكبة بشكل عموميّ لا يكفي، لذلك فإنّ التغيير سيحدث بعد أن يعمل اليهود والفلسطينيّون سويّة على أساس متكافئ تمامًا، ويربطوا فعل النكبة مع التاريخ الشخصيّ والعائليّ والمحليّ. كيف ترتبط النكبة بالقصّة العائليّة؟ من أُقتلع وإلى أين؟ من نهب أو طرد؟ كيف يتعلّق هذا الأمر بمكان

إقامتي؟ أيّ أراضٍ سُرقت وعلى أيّ أراضٍ أقاموا بلدتي اليهوديّة؟ يجب كتابة تاريخ محليّ عن شكل إقامة البلدات كما جرى مثلًا في تسرعاه ونحشوليم وكيبوتس دان، والأحياء أيضًا مثل طالبية والقطمون. يجب كتابة تاريخ عن النهب وقتل المواطنين في أماكن أخرى غير الطنطورة، والتي ارتكبها في الحرب يهود وعرب. سيكون هذا تاريخًا مُدمجًا للتجربة التي عاشها يهود وفلسطينيّون أثناء ١٩٤٨ وما تلاها. اليوم، وأنا أكتب هذه الأسطر الأخيرة، يبدو لي أنّ هذه النقطة الأهمّ التي يطرحها هذا الكتاب.

يوجد في البلد شعبان يريان فيها موطنهم. في العقد الأخير اشتدّ الهجوم على الفلسطينيّين مواطني إسرائيل، والمُوجّه ضدّ حقوقهم السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، وضدّ مشاركتهم المشروعة في المنظومة السياسيّة (رغم وجود مسارات معاكسة أيضًا). يتجلّى هذا النّهج تجليًّا ساطعًا في قانون أساس: إسرائيل- الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ، الذي تجاهل وجود شعب فلسطينيّ في إسرائيل ومنح الحقّ بالسيادة للشعب اليهوديّ فقط. من غير الممكن تحقيق المساواة في ضمن إطار سياسيّ-صهيونيّ كما هو مُعرّف في قانون القوميّة، وحتّى في وثيقة الاستقلال. ومن دون مساواة ينعدم الحلّ، أو لنقل ينعدم الحلّ المستند إلى العدالة والحقوق المكفولة للجميع، لذا فإنّه لن يكون حلًّا شرعيًّا (بالطبع، الحلّ العنيف مثل الطرد هو «حلّ» أيضًا). من هنا، يبدو أنّ هناك طريقيْن أساسيْن تُفضيان إلى المستقبل: مواصلة سلطة الفوقيّة اليهوديّة، ما يعني الغُبن وعنف القويّ تجاه الضعيف، أو المساواة في الحقوق لكلّ سكّان البلد ضمن تسوية سياسيّة ما. وكما يبدو لنا اليوم فمن الصعب أن نؤمن بأنّ المجتمع اليهوديّ سيعثر في المستقبل القريب على الرغبة والقوى اللازمة للتغيُّر من أجل تشييد عالم متكافئ. لذا يبدو الآن أنّ السّلب الجارف لحقوق الفلسطينيّين مواطني إسرائيل، وأعمال العنف الجماعيّة تجاه الفلسطينيّين عبر جانبيِّ الخط الأخضر، هي بمثابة سيناريوهات واقعيّة.

مع هذا، أنا أتذكّر أعاجيب التاريخ: من كان يظنّ قبل سنة من ٩ تشرين الثاني ١٩٨٩ أنّ جدار برلين سيسقط، وستسقط في أثره أنظمة دكتاتوريّة وأنظمة قمع كثيرة؟ من كان يتخيّل في سنوات الثّمانين أنّ يومًا ما سيأتي وسينتهي نظام الفصل العنصري (الأپرتهايد) في جنوب أفريقيا؟ لا أحد يعرف ما يُخبّئه الغد. سيظلّ ثمّة أملٌ، حتّى لو كان واهيًا، ما دُمنا نحافظ على قدرتنا البشريّة برؤية العالم عبر منظور الآخرين، وسرد قصّة فلسطين وإسرائيل. فمُجرّد فعل السّرد -كأديب أو كمؤرّخ- هو محاولة للنظر إلى الخارج واقتراح طريقة لرؤية العالم، بأن نكون في العالم وأن نُطلق العنان للخيال. ربما. أنا أرغب بتصديق هذا. من يعرف ما الذي يُخبّئه الغد؟ نحن ننتظر إذًا المفاجئ وغير المتوقَّع، ننتظر التاريخ كي يفاجئنا للأفضل.

(ترجمها عن العبرية: علاء حليحل)